اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الثالثة)

عنوان المحاضرة : ازدهار الشعر العباسي.

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة الثالثة

ازدهار الشعر

١ – ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية فى هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبى البيداء وابن الدّمينة وابن ميّادة وأبى حيّة النّميرىّ وأبى ضمضم الكلابى وابن عمه أبى زياد والعمانى وشبيل بن عزرة الضّبعىّ وأبى العميثل وعمارة بن عقيل حفيد جرير. وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم . وكان يقابلهم فى المدن شعراء لم ينشأوا فى البادية، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت فى دخائلهم، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبيانا.

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل السابق الفضل فى تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلى والإسلامى، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعا دقيقا، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى. وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة، نذكر من بينهم حمادا الرواية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعى.

ولم يغرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشىّ والألفاظ الغريبة، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ: «لم أر غاية النحويين إلا كل شعر

فيه إغراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج (٢)».

ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم ألّفتا فى العصر هما المفضليات للمفضّل لضبى الكوفى والأصمعيات للأصمعى البصرى، وهما تزخران بالغريب. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودوّنوها، وفسروها وشرحوها. وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء. وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوى، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم، مما جعل الجاحظ يقول:

«للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم.

فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل. فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس (١)». وانضم إلى ذلك باعث سياسى، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار. وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها. وأخذوا أبناءهم بتعلمها، بل بإتقانها، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيرا من نماذجها الشعرية وكى يقفوهم على صياغاتها وأساليبها، وتأليف المفضل الضبى للمهدى كتاب المفضليات، وهو لا يزال ناشئا فى عهد أبيه، ذائع مشهور. وبذلك سرى فى القصر العباسى ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء، إذ كانوا يمثلون بين أيدى الخلفاء مادحين لهم. وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة. وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعى، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم فى العطاء.

وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر فى هذا العصر وحرّاسه، فمن نوّهوا به طار اسمه، ومن لوّحوا فى وجهه خمل وغدا نسيا منسيّا. ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل العظام، فإن استحسنوها مضوا فأنشدوها، وإن لم يستحسنوها ذهبوا يعاودون الكرّة بصنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم، فمن ذلك ما يروى عن مروان بن أبى حفصة

من أنه لما نظم قصيدته: (طرقتك زائرة فحيّ خيالها)

وهى إحدى روائعه فى المهدى ذهب إلى حلقة يونس النحوى فقال له: قد قلت شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته، وإن كان رديئا سترته. وأنشده القصيدة، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب (١). حينئذ مضى فأنشدها المهدى، فزحف من صدر مصلاّه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع، ثم قال لمروان:

كم هى؟ قال مروان: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباس (٢). ويسوق المرزبانى فى كتابه الموشح فصلا طويلا (٣)، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم، فهم قضاة الشعر وصيارفته، وفى ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر: «إنما أنتم–معشر الشعراء–تبع لى، وأنا سكّان السفينة إن قرّظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم (٤)».

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسى، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعرى القديم تمسكا شديدا، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يسقطون الشعراء العباسيين إسقاطا حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذى الرّمّة والرّجز برؤبة قائلا فى المحدثين: «إنهم كلّ (٥) على غيرهم، إن قالوا حسنا فقد سبقوا إليه، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم (٦)». وكان الأصمعى يختم الشعر بابن ميّادة وابن هرمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية (٧). وأنشده إسحق الموصلى بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق: إنهما من نظمه، فبادره قائلا: أفسدت الشعر، إن التوليد فيهما لبيّن (٨). ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبى عبيدة: «اتّق الله واحكم بين شعرى وشعر عدىّ بن زيد، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى، وذاك قديم وهذا محدث، فتحكم بين العصرين ولكن احكم بين الشعرين، ودع العصبية ولا شك فى أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان.

ولكن من الحق أنهم–بهذا الموقف–جعلوا نماذج الشعر القديم، بالقياس إلى العباسيين، تصبح كالأمهات الغاذية، فكلهم نهلوا من أثدائها وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم وتمكن من نفوسهم. ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء، فنراهم عربا تامين وكأنهم فصلوا توّا من الجزيرة. ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب

فى النموذج الشعرى القديم، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة. وقد مضوا يعدّون عليهم سقطاتهم، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم، فقاسوا عليها، وإما لغات شاذة رأوها أيضا فى هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها. واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى «الموشح» من هذه السقطات فستراه قلما يعد وهذه الوجوه الثلاثة.

ونضرب مثلا لذلك: ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى «الوجلى، والغزلى» من الوجل والغزل ظنّا منه أن هذا من حقه وإن لم يسمع عن العرب، وكذلك جمعه لفظة «نون» بمعنى البحر على «نينان» ظنّا منه أن الكلمة تدخل فى قياس هذا الجمع (٢). وأبو نواس هو أكثر العباسيين مآخذ (٣)، وهى تردّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات عربية، وفى ذلك يقول ابن قتيبة: «وقد كان أبو نواس يلحّن فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حجّة من الشعر المتقدم وعلى علّة بيّنة من علل النحو، منها قوله:

فليت ما أنت واط ...من الثّرى لى رمسا

طوابع عقلية دقيقة:

رأينا فى الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية فى هذا العصر رقيّا بعيدا.

وهو رقى هيأت له الكتب الكثيرة التى ترجمت عن الهنود والفرس واليونان، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء، وهى مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل، الذى ما بنى صاحبه يحاور ويناظر، متناولا كل شئ، حتى يصقل عقله، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة. وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء، ليصوروه له، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه، وفى ذلك يقول بشار (١):

شفاء العمى طول السؤال وإنما ...دوام العمى طول السكوت على الجهل

فكن سائلا عما عناك فإنما ...دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ولم يكن الشاعر العباسى يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه فى السؤال فحسب، بل كان يلتمسها أيضا فى الكتب المترجمة من كل صنف، ومن خير ما يصور ذلك

أبيات لمحمد بن يسير، يشرح فيها أنه فى بيت كتبه، وكنوز الآداب من حوله، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعا، يقول (١):

هم مؤنسون وألاّف غنيت بهم ...فليس لى فى أنيس غيرهم أرب

فأيما أدب منهم مددت يدى ...إليه فهو قريب من يدى كثب (٢)

حتى كأنى قد شاهدت عصرهم ...وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة فى عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة وما كانوا يجدون فى ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة. وقد مضوا يتمثلون كثيرا من هذه الألوان ويحيلونها غذاء شعريّا بديعا، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى، وما لم يحيلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد. ولنقف قليلا عند الثقافة الهندية، فقد لا حظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها فى أشعاره، من ذلك قوله فى الخمر:

تخيّرت والنجوم وقف ...لم يتمكّن بها المدار

يقول ابن قتيبة: «يريد أن الخمر تخيّرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيّرها من هناك، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم، والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيرا منها، فهلك الخلق بالطوفان، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت (٣)». وينشد ابن قتيبة قول أبى نواس فى بعض المغنين هاجيا:

قل لزهير إذا حدا رشدا ...أقلل أو أكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حـ ...تّى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى ...كذلك الثّلج بارد حار

ويعلق بقوله: «هذا الشعر يدلّ على نظر أبى نواس فى علم الطبائع، لأن الهند تزعم أن الشئ إذا أفرط فى البرد عاد حارّا مؤذيا، ووجدت فى بعض كتبهم:

لا ينبغى للعاقل أن يغترّ باحتمال السلطان وإمساكه، فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلسع لم يغتر بها فيعاد لوطئها، أو سمح الطبع بمنزلة الصّندل الأبيض البارد إن أفرط فى حكّه عاد حارّا مؤذيا (١)». وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه الفرس عن الهندية، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية، على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعرا بكل ما فيه من قصص وحكم. وكان

أثره عميقا فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال، ونرى ابن عبد ربه فى العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هى: «إن الحازم يكره القتال ما وجد بدّا منه، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة فى غيره من المال» ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال (٢):

كم بين قوم إنما نفقاتهم ...مال وقوم ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية فى الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبى نواس، بل أيضا بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتّابى، وكان يعكف على قراءة كتبها، ورآه شخص يوما ينسخ بعض صحفها، فسأله متعجبا: لم تكتب كتب العجم؟ فأجابه منكرا سؤاله: وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم؟ اللغة لنا والمعانى لهم (٣). وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

ولعمرى لو ذقتما ألم الفر ...قة أبكاكما الذى أبكانى

أسعدانى وأيقنا أنّ نحسا ...سوف يلقاكما فتفترقان

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .

- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .